الفصل الثالث

الشمول

«الشمول» من الخصائص التي تميز بها الإسلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب، بكل ما تتضمنه كلمة «الشمول» من معان وأبعاد.

إنه شمول يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب كيان الإنسان كله.

لقد عبَّر الشهيد حسن البنا عن أبعاد هذا الشمول في رسالة الإسلام فقال وأجاد:

« إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن ..

وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم ..

وامتدت عمقاً حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة »..

* * *

- رسالة الزمن كله:

إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست رسالة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه ، كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد ﷺ فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة، حتى إذا ما انقضت بَعَثَ اللّه نبياً آخر.

أما محمد ﷺ فهو خاتم النبيين، ورسالته هي رسالة الخلود التي قَدَّرَ اللّه بقاءها إلى أن تقوم الساعة ويُطوي بساط هذا العالم، فهي تتضمن هداية اللّه الأخيرة للبشرية. فليس بعد الإسلام شريعة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد محمد نبي. ولم يسبق لنبي قبل محمد ﷺ أن أعلن أن رسالته هي الخاتمة وأن لا نبي بعده. بل بَشَّرت التوراة بمن يأتي بعد موسى، وبَشَّرَ الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسى وهو «الفارقليط» الذي سيبين كل الحق: ولا يتكلم من عند نفسه.

إنها رسالة المستقبل المديد ولا شك، وهي أيضاً رسالة الماضي البعيد.

إنها - في جوهرها وأصولها الاعتقادية والأخلاقية - رسالة كل نبي أرسل، وكل كتاب أنزل، فالأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام، ونادوا بالتوحيد، واجتناب الطاغوت، وهذا ما يقرره القرآن في وضوح وتأكيد:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(١) .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾(٢) .

كل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام.

نوح قال: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٣) .

وإبراهيم وإسماعيل قالا: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾(٤) .

ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب فقالا: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(٥) .

ويوسف دعا ربه فقال: ﴿ .. تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٦) .

وموسى قال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾(٧) .

وسحرة فرعون حين آمنوا بموسى، قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٨) .

وسليمان بعث لبلقيس وقومها: ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(٩) .

والحواريون قالوا لعيسى: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(١٠) .

---

(١) الأنبياء: ٢٥
(٢) النحل: ٣٦.
(٣) يونس: ٧٢.
(٤) البقرة: ١٢٨.
(٥) البقرة: ١٣٢.
(٦) يوسف: ١٠١.
(٧) يونس: ٨٤.
(٨) الأعراف: ١٢٦.
(٩) النمل: ٣١.
(١٠) آل عمران: ٥٢.

إنها إذن - في جوهرها - رسالة كل نبي جاء من عند الله منذ عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام . إنها رسالة الزمن .. كل الزمن.

* * *

• رسالة العالم كله :

وإذ كانت هذه الرسالة غير محددة بعصر ولا جيل - فهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة، ولا بشعب ولا بطبقة.

إنها الرسالة الشاملة، التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات.

إنها ليست رسالة لشعب خاص، يزعم أنه وحده شعب الله المختارا وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له.

وليست رسالة لإقليم معين، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض، وتُجبي إليه ثمراتها وأرزاقها.

وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تُسَخِّر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها، أو السير في ركابها، سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء، من السادة أم من العبيد، من الأغنياء أم من الفقراء والصعاليك، إنها رسالتهم جميعاً. وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها. وليس فهمها ولا تفسيرها ولا الدعوة إليها حكراً على طبقة خاصة كما قد يتوهم كثير من الناس. إنها هداية رب الناس لكل الناس، ورحمة الله لكل عباد الله. وهذا ما وضحه القرآن منذ العهد المكي. نقرأ في ذلك: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾[1]. ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّه إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾[2] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[3] . ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾[4] .

---

(١) الأنبياء: ١٠٧ (٢) الأعراف: ١٥٨
(٣) الفرقان: ١ (٤) سورة ص: ٨٧

وقد زعم بعض المستشرقين أن محمداً ﷺ لم يكن يُعلن في أول أمره أنه مبعوث إلى الناس كافة، وإنما فعل ذلك بعد ما أتيح له الانتصار على قومه من العرب. ولكن الآيات التي ذكرناها تَرد عليهم. فكلها -لسوء حظهم- من سور القرآن المكية، ومثلها مما نزل من أوائل القرآن كثير.

* * *

• رسالة الإنسان كله :

وهي كذلك رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل.

إنها ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه. ولا لروحه دون جسمه، ولا لأفكاره دون عواطفه ، ولا عكس ذلك.

إنها رسالة الإنسان كله: روحه وعقله، وجسمه، وضميره، وإرادته ، ووجدانه. كما نبهنا على ذلك في «خصيصة الإنسانية».

إن الإسلام لم يشطر الإنسان شطرين، كما فعلت أديان أخر: شطر روحي يوجهه الدين، ويتجه به للمعبد، وهذا الشطر أو النصف من اختصاص رجال الدين (الكهنوت) يتحكم فيه الكاهن أو القسيس، ويقود الإنسان من خلاله. وشطر آخر مادي لا سلطان للدين ولا لرجاله عليه، ولا مكان للّه فيه. إنه شطر للحياة، للدنيا، للسياسة، للمجتمع، للدولة، وهذا في الواقع هو الجزء الأكبر من حياة الإنسان.

تُرى هل يتفق هذا مع فطرة الإنسان وطبيعته كما خلقه اللّه ؟

كلا، فالإنسان -كما خلقه اللّه- ليس مجزءاً ولا مشطوراً. إنه «كل» متكامل. و«كيان» واحد، لا تنفصل فيه روح عن مادة، ولا مادة عن روح، ولا عقل عن عاطفة، ولا عاطفة عن عقل، إنه «وحدة» لا تتجزأ، من الجسم والروح والعقل والضمير.

فلهذا يجب أن تكون غايته واحدة، ووجهته واحدة، وطريقه واحداً وهذا ما صنعه الإسلام. فقد جعل الغاية اللّه ، والوجهة الآخرة.

وبهذا لا يتمزق الإنسان بين توجيهين مختلفين، أو سلطتين متناقضتين . هذه تُشَرِّق به وتلك تُغَرِّب. كالعبد الذي له أكثر من سيد، كل واحد يأمره بغير ما يأمر به الآخر، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع كما ذكر القرآن الكريم في قوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾[1] .

* * *

• رسالة الإنسان في أطوار حياته كلها:

إن الإسلام هو رسالة الإنسان كله، وهو رسالته كذلك في كل مراحل حياته ووجوده، فهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول الإسلامي.

إنها هداية الله، تصحب الإنسان أنّى اتجه وأنّى سار في أطوار حياته. إنها تصحبه طفلاً، ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً. وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يُحبه الله ويرضاه.

فلا عجب أن تجد في الإسلام أحكاماً وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده مثل إماطة الأذى عنه، والتأذين في أذنه، واختيار اسم حسن له، وذبح عقيقة عنه شكراً لله. وغير ذلك مما ضمّنه إمام كابن القيم كتاباً مستقلاً له سماه «تحفة المودود في أحكام المولود».

ونجد أحكاماً تتعلق بارضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه، ومن يرضعه وعلى من تكون نفقة المرضعة أو أجرتها، وخصوصاً عند الطلاق وانفصال أم الرضيع عن أبيه. فهنا ينزل القرآن الكريم مُوَضِّحاً مُفَصِّلاً كل ذلك، فيقول: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا، لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا، وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] .

---

(١) الزمر: ٢٩ (٢) البقرة: ٢٣٣

وبعد ذلك نجد أحكاماً تتعلق بالإنسان صبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً، فلا ترجد مرحلة من حياته إلا وللإسلام فيها توجيه وتشريع.

وأكثر من ذلك أنها تعنى بالإنسان قبل أن يولد، وبالإنسان بعد أن يموت.

ولا غرو أن وجدنا في الإسلام أحكاماً تتعلق بالجنين، من حيث وجوب حمايته، والحرص على حياته واستمرار غذائه بمقدار كاف. ولهذا حرَّم الشرع الإجهاض، وقدَّر ديةً محددة تجب على من تسبب في إسقاط الجنين، وشرع للحامل أن تُفطر في رمضان إذا خافت على جنينها أن يقل غذاؤه، وتتأثر صحته. إلى غير ذلك من الأحكام التي تتعلق بالحمل وميراثه، وبالحامل ونفقتها مدة الحمل وإن كانت مطلقة: ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١).

كما وجدنا في الإسلام أحكاماً أخرى تتعلق بالإنسان بعد موته: من وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه بكيفية خاصة، ومن شرعية التعزية فيه، والدعاء له، وتنفيذ وصاياه، وقضاء ديونه التي عليه للعباد أو للّه تعالى. وغير ذلك مما يشمله كتاب «الجنائز» وغيره في الفقه الإسلامي.

* * *

• رسالة الإنسان في كل مجالات حياته:

ومن معاني الشمول في الإسلام أيضاً: أنه رسالة للإنسان في كل مجالات الحياة، وفي كل ميادين النشاط البشري. فلا يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيه موقف: قد يتمثل في الإقرار والتأييد، أو في التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل، وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتقنين، قد يسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة، كل في موضعه.

المهم هنا أنه لا يدع الإنسان وحده -بدون هداية اللّه- في أي طريق يسلكه،

(١) الطلاق. ٦

وفي أي نشاط يقوم به: مادياً كان أو روحياً، فردياً أو اجتماعياً، فكرياً أو عملياً، دينياً أو سياسياً، اقتصادياً أو أخلاقياً.

إن الإسلام - كما قال المرحوم العقاد - «هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ومسالماً أو محارباً، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته، فلا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد، أو لأنه جسد ينكر الروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة أخرى. ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه، في جميع حالاته، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع.

إن شمول العقيدة هي ظواهرها الفردية، وظواهرها الاجتماعية، هو المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية، وهو المزية التي تُوحي إلى الإنسان أنه «كل» شامل فيستريح من «فصام» العقائد التي تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق »[1] .

يريد الكاتب رحمه اللّه: أن بعض الديانات -كالمسيحية- ارتضت أن تقسم الحياة نصفين، نصف للدين تقوده الكنيسة، ونصف للدنيا تقوده الدولة كما ذكرنا من قبل.

وسند رجال المسيحية في ذلك ما حكاه إنجيلهم عن المسيح عليه السلام أنه قال لمن سأله عن قيصر قولته المشهورة: «أعط ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه».

ولكن الإسلام ينكر هذه القسمة للحياة ويرفضها لأمرين :

الأول : أن الإسلام يجعل الكون كله والخلق كلهم ملكاً للّه ، وليس لقيصر فيه ذرة واحدة ، فقيصر إذن وما لقيصر للّه الواحد القهار ، وفي هذا يقول القرآن : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[2] . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

---

(١) الإسلام في القرن العشرين للأستاذ عباس محمود العقاد فصل «قوة صامدة».
(٢) يونس: ٥٥

وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾[1] . ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾[2] .

فلا يجوز في عقيدة الإسلام أن يخضع المسلم -مختاراً- لأمر قيصر وهو قادر على إخضاع قيصر لأمر الله، ولا يجوز أن يعطي ظاهره لقيصر وباطنه لله: ﴿ بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾[3] .

والثاني: أن الحياة بكل جوانبها كتلة واحدة، لا تقبل الانقسام والتفريق، إلا في الورق أو الرؤوس، أما في الواقع فالحياة كل لا يتجزأ، ولا ينفصل فيه دين عن دولة، ولا اقتصاد عن أخلاق، ولا فرد عن أسرة، ولا أسرة عن مجتمع.

ولهذا تحاول كل المذاهب الكبرى السيطرة على كل نواحي الحياة، وتوجيهها حسب فكرتها وعقيدتها، حتى الكنيسة نفسها في العصور الوسطى بأوروبا لم تطبق عملياً، ما جاء في الإنجيل نظرياً. وحاولت هي أن تأخذ مكان قيصر أو -على الأقل- تسيطر عليه، وتدير السياسة من خلاله.

* * *

• شمول التعاليم الإسلامية:

وإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله في كل أطواره، ورسالة الحياة كلها، بكل جوانبها ومجالاتها، فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شئون الحياة والإنسان.

نجد هذا الشمول يتجلى في العقيدة والتصور، ويتجلى في العبادة والتقرب، ويتجلى في الأخلاق والفضائل، ويتجلى في التشريع والتنظيم.

* * *

• شمول العقيدة الإسلامية:

فالعقيدة الإسلامية عقيدة شاملة من أي جانب نظرت إليها.

---

(١) طه : ٦ (٢) آل عمران: ٨٣ (٣) الرعد: ٣١

(أ) فهي توصف بالشمول، باعتبار أنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله، وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل المتضاربة قديماً وحديثاً: قضية الألوهية .. قضية الكون .. قضية الإنسان .. قضية النبوة .. قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تعني بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة، دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح، ووضوح شامل.

(ب) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك، لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين: إله الخير والنور، وإله الشر والظلمة كما كان في المجوسية ، أو بين اللّه والشيطان الذي سمي في الأناجيل باسم «رئيس هذا العالم» واسم «إله هذا الدهر» وانقسم العالم بينه وبين اللّه، فله مملكة الدنيا، وللّه ملكوت السموات. فيوشك أن يكون عمله في نظر المسيحية مضارعاً لعمل «اهريمان» إله الظلام في المجوسية»![1].

إن الشيطان في نظر الإسلام، يمثل قوة الشر لا مراء، ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الإنسان، إلا سلطان الوسوسة والإغراء والدعوة إلى الشر وتزيينه في الأنفس: فهذا مبلغ كيده وجهده، وهو كيد ضعيف أمام يقين المؤمنين المعتصمين باللّه المتوكلين عليه.

يقول اللّه تعالى، على لسان الشيطان نفسه في مخاطبة من أغواهم: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[2].

ويقول سبحانه في مخاطبة الشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾[3]. ويقول: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى

(١) انظر: حقائق الإسلام للعقاد ص١٠٣ ط أولى.
(٢) إبراهيم : ٢٢ (٣) الإسراء : ٦٥

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾[1] ويقول: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾[2].

(جـ) وتوصف العقيدة الإسلاميه بالشمول من ناحية أخرى، وهى: أنها لا تعتمد فى ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده، كما هو شأن الفلسفات الإشراقية والمذاهب الصوفية. وكما هو شأن المسيحية التى ترفض تدخل العقل فى العقيدة رفضاً باتاً، بحيث لا تؤخذ إلا بالتسليم المطلق، على حد قولهم: اعتقد وأنت أعمى.

وهى كذلك لا تعتمد على العقل وحده، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية التى تتخذ العقل وسيلتها الفذة فى معرفة اللّه وحل ألغاز الوجود.

وإنما تعتمد على الفكر والشعور معاً أو العقل والقلب جميعاً، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية، والوعى الإنسانى.

إن الإيمان الإسلامي الصحيح هو الذى ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب، وبذلك يؤدى دوره ويؤتى أكله فى الحياة.

(د) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضاً، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، لابد ان تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار، أو حتى شك فى أى جزء منها. فمن آمن بـ ٩٩٪ من مضمون هذه العقيدة، وكفر بـ ١٪ لم يعد بذلك مسلماً. فالإسلام يقتضى أن يسلم الانسان قياده كله للّه، ويؤمن بكل ما جاء من عنده.

لا يجوز فى نظر العقيدة الإسلامية، أن يقول مسلم: أنا مؤمن بالقرآن الكريم فى شأن الشعائر والعبادات - مثلا - ولكن لا أومن بما جاء به فى شأن الأخلاق والآداب، أو يقول: آخذ من القرآن العبادة والأخلاق، ولكن لا أستمد النظام والتشريع. أو آخذ منه ذلك كله، ولكن لا أصدقه فى كل ما يرويه من أحداث التاريخ. أو أصدقه وأسلم له فى كل ما ذكرنا ولكن لا أعتقد بحقيقة ما جاء في وصف الآخرة، وحقيقة الجنة والنار.

---

(١) النحل : ٩٩-١٠٠ (٢) النساء : ٧٦

ومن ثم أنكر القرآن أشد الإنكار على بنى إسرائيل إيمانهم ببعض الرسل دون بعض، وببعض الكتاب الإلهى دون بعض. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّه وَرُسُله وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّه وَرُسُله وَيَقُولُونَ نُؤْمنُ ببَعْض وَنَكْفُرُ ببَعْض وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخذُوا بَيْنَ ذَلكَ سَبيلاً * أُولَئكَ هُمُ الْكَافرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا للْكَافرينَ عَذَابًا مُهينًا ﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿ أَفَتُؤْمنُونَ ببَعْض الْكتَاب وَتَكْفُرُونَ ببَعْض، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلكَ منْكُمْ إلاَّ خزْيٌ في الْحَيَاة الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقيَامَة يُرَدُّونَ إلَى أَشَدِّ الْعَذَاب، وَمَا اللَّهُ بغَافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

* * *

- شمول العبادة في الإسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامي في عبادته كما تمثلت في عقيدته.

فالعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها. بل يعبد الله بهذه كلها: بلسانه ذاكراً داعياً تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً راجياً محباً متوكلاً، وبعقله متفكراً متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه.

إن عبادة كالصلاة تتجلى فيها عبادة اللسان بالتلاوة والتكبير والتسبيح والدعاء، وعبادة الجسم بالقيام والقعود، والركوع والسجود، وعبادة العقل بالتفكر والتأمل في معاني القرآن وأسرار الصلاة، وعبادة القلب بالخشوع والحب لله ، والشعور بمراقبة الله.

ومعنى آخر للشمول في العبادة، وهي أنها تتسع للحياة كلها، فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس.

---

(١) النساء : ١٥٠ـ١٥١ (٢) البقرة : ٨٥

فالجهاد في سبيل الله ، دفاعاً عن الحق، وذوداً عن الحرمات، ومنعاً للفتنة، وإعلاء لكلمة الله .. عبادة لا تعدلها عبادة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس، فأقمت في هذا الشعب! (يعني لأتعبد) ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى، أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً! ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله. من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»[1] .

وعنه أيضاً، قال: قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه». ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم، لا يفتر من صلاة ولا صيام، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله »[2] .

وكل عمل نافع يقوم به المسلم، لخدمة المجتمع، أو مساعدة أفراده. وخصوصاً الضعفاء وذوي العجز والفاقة منهم .. هو كذلك عبادة أي عبادة.

من ذلك ما جاءت به الأحاديث الكثيرة التي تحث على الصدقة كل يوم تطلع فيه الشمس. حتى جعلت إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وحمل الرجل الضعيف على دابته صدقة، بل تبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل معروف صدقة.

ويدخل في دائرة العبادة: سعي الإنسان على معاشه ومعاش أسرته، ليغنيهم بالحلال، ويعفهم عن السؤال، فالرسول ﷺ قد اعتبر من فعل ذلك «في سبيل الله» أي في جهاد كجهاد الميدان وقتال أعداء الله.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره المنذري في الترغيب.

(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

وأكثر من ذلك أنه جعل من وضع شهوته في حلال كان له بها أجر، ولما عجب الصحابة من ذلك، قال لهم النبي: «أليس لو وضعها في حرام كان عليه وزر»؟ قالوا: بلى. قال: «فكذلك لو وضعها في حلال كان له أجر، أتحتسبون بالشر، ولا تحتسبون بالخير»؟![1].

* * *

• شمول الأخلاق في الإسلام:

ويبرز الشمول كذلك في ميدان الأخلاق والفضائل. فالأخلاق الإسلامية ليست هي التي تُعرف عند بعض الناس بـ«الأخلاق الدينية» التي تتمثل في أداء الشعائر التعبدية، واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، ونحو ذلك لا غير. إنها أخلاق تسع الحياة بكل جوانبها، وكافة مجالاتها.

إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع. فما فرَّقه الناس في مجال الأخلاق، باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، قد ضمه قانون الأخلاق في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه.

١- إن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه :

(أ) جسماً له ضروراته وحاجاته. بمثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾[2] . وقول الرسول ﷺ : «إن لبدنك عليك حقاً»[3] .

(ب) وعقلاً له مواهبه وآفاقه، يقول القرآن: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[4] ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾[5] .

---

(١) انظر في شمول العبادة كتابنا «العبادة في الإسلام» فصل «مجالات العبادة في الإسلام».
(٢) الأعراف: ٣١ (٣) رواه الشيخان.
(٤) يونس: ١٠١ (٥) سبأ: ٤٦

(جـ) ونفساً لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[1] .

٢- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة :

(أ) كالعلاقة بين الزوجين: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً، وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[2] .

(ب) وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾[3] . ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾[4] .

(جـ) وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾[5] . ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾[6] .

٣- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع:

(أ) في آدابه ومجاملاته، مثل: ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[7] .

(ب) وفي اقتصاده ومعاملاته: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[8] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ، وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾[9] .

(جـ) وفي سياسته وحكمه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[10] .

---

(١) الشمس: ٩-١٠
(٢) النساء: ١٩
(٣) الأحقاف: ١٥
(٤) الإسراء: ٣١
(٥) النحل: ٩٠
(٦) الإسراء: ٢٦
(٧) النور: ٢٧
(٨) المطففين: ١-٣
(٩) البقرة: ٢٨٢
(١٠) النساء: ٥٨

٤- ومن أخلاق الإسلام، ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير، كما في الحديث: «اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»، وفي الحديث الآخر: «في كل كبد رطبة أجر»[١].

٥- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالكون الكبير:

من حيث أنه مجال التأمل والاعتبار والنظر والتفكر والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾[٢].

ومن حيث أنه مجال للانتفاع والاستمتاع بما أودع الله فيه من خيرات وما بث فيه من قوى مسخرة لمنفعة الإنسان، وما أسبغ فيه من نعم، تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾[٤].

٦- وقبل ذلك كله وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[٥] فهو وحده الحقيق بأن يُحمد الحمد كله، وأن تُرجى رحمته الواسعة. وأن يُخشى عقابه العادل يوم الجزاء. وهو وحده الذي يستحق أن يُعبد ويُستعان وأن تُطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

وبهذا، يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية، من حيث موضوعها ومحتواها، ولكن الشمول في الأخلاق الإسلامية يبدو كذلك إذا نظرنا إلى فلسفتها ومصدر الإلزام بها.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) آل عمران: ١٩٠-١٩١
(٣) لقمان: ٢٠
(٤) البقرة: ١٧٢
(٥) الفاتحة: ٢-٦

لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة، فهو هداية الله للناس كافة، من كل الأمم، وكل الطبقات، وكل الأفراد، وكل الأجيال. والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم، ودرجات اهتمامهم. ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية في الإسلام ما فرّقته الطوائف الدينية، والمذاهب الفلسفية -مثالية وواقعية- في نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخُلقي، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلاً، كما لم يكن كله حقاً. إنما كان عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية، وأغفلت أخرى، وهو أمر لازم لتفكير البشر، الذي يستحيل عليه أن ينظر في قضية ما نظراً يستوعب كل الأزمنة والأمكنة، وكل الأجناس والأشخاص، وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله عليم حكيم.

فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام، جامعة محيطة مستوعبة، لأنها ليست نظرية بشر، بل وحي من أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

لهذا أودع الله في هذا الدين ما يشبع كل نهمة معتدلة، وما يقنع كل ذي وجهة، ويلائم كل تطور، فمن كان مثالياً ينزع إلى الخير لذات الخير، وجد في أخلاقية الإسلام ما يرضي مثاليته. ومن كان يؤمن بمقياس السعادة، وجد في الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة -فردية أو اجتماعية- وجد في الإسلام ما يرضي نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقي إلى الكمال، وجد فيه ما يحقق طلبته، ومن كان همه التكيف مع المجتمع، وجد فيه ما يلائم اجتماعيته، حتى الذي يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة من نعيم مادي، ومتاع حسي: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾[1].

وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التي تحبها، وتجد كل نفس الأمنية التي تهفو إليها[2].

* * *

(١) الزخرف: ٧١

(٢) انظر: كلمات في مبادئ علم الأخلاق لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز.

- شمول التشريع في الإسلام:

والتشريع في الإسلام تشريع شامل كذلك.

إنه لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات.

إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم «العبادات» في الفقه الإسلامي، وهو ما لا يوجد في التشريعات الوضعية.

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى «الحلال والحرام» أو الحظر والإباحة.

ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق ونفقات، ورضاع، وميراث، وولاية على النفس والمال ونحوها. وهذا يشمل ما يسمى في عصرنا «الأحوال الشخصية».

ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض، من البيوع والإجارات والقروض والمداينات والرهن والحوالة والكفالة والضمان وغيرها. مما تتضمنه في عصرنا القوانين المدنية والتجارية.

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعاً كالحدود والقصاص، والمتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير. وهذا يشمل ما يسمى الآن بـ«التشريع الجنائي» أو «الجزائي» وقوانين العقوبات.

ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام، وتنظيم الصلة بين الطرفين، مما عنيت به كتب السياسة الشرعية والخراج، والأحكام السلطانية في الفقه الإسلامي، وتضمنه في عصرنا «التشريع الدستوري» أو «الإداري» و«المالي».

ويشمل التشريع الإسلامي ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب، بين المسلمين وغيرهم، مما عنيت به كتب «السير» أو «الجهاد» في فقهنا الإسلامي، وما ينظمه في عصرنا «القانون الدولي».

ومن هنا لا توجد ناحية من نواحي الحياة إلا دخل فيها التشريع الإسلامي آمراً أو ناهياً، أو مخيراً.

وحسبنا أن أطول آية نزلت في كتاب الله تعالى، نزلت في تنظيم شأن من الشئون المدنية، وهو المداينة، وكتابة الدين.

ويبدو شمول التشريع الإسلامي في أمر آخر، أو بُعد آخر، وهو النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة، وما يؤثر فيها، وما يتأثر بها، والنظر إليها نظرة محيطة مستوعبة، مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية والأخلاقية، بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها، ولا يكون معولاً لهدمها.

ومن عرف هذا جيداً، استطاع أن يفهم موقف التشريع الإسلامي وروعته من قضايا كثيرة، كالطلاق وتعدد الزوجات، والميراث، والربا، والحدود والقصاص، وغيرها. مما أثبتت الدراسات المقارنة، وأثبت الاستقراء التاريخي والواقعي فضل الإسلام فيه وتفوقه على كل تشريع سابق أو لاحق.

إن عيب البشر الذي هو من لوازم ذواتهم المحدودة أنهم ينظرون إلى الأمور والأشياء من جانب واحد، غافلين عن جانب أو أكثر من جوانبها الأخرى. والحقيقة أنهم لا ذنب لهم في هذا القصور ولا حيلة، لأن النظرة المحيطة الشاملة، التي تستوعب الشيء من جميع جوانبه، وتعرف كل احتياجاته، وتدرك كل احتمالاته وتوقعاته، لا يقدر عليها إلا رب البشر وخالق الكون: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1].

* * *

(١) الملك: ١٤

• شمول الالتزام بالإسلام كله :

هذا الشمول الذي تميز به الإسلام -بحيث استوعب الحياة كلها، والإنسان كله، في كل أطوار حياته، وفي كل مجالات حياته- يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين: أعني الالتزام بهذا الإسلام كله في شموله وعمومه وسعته. فلا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه، وطرح جانب آخر، أو جوانب أخرى منها، قصداً أو إهمالاً، لأنها «كُلٌّ» لا يتجزأ.

وقد عاب القرآن الكريم على بني إسرائيل تجزئتهم أحكام دينهم تبعاً لأهوائهم، يأخذون منها ما راق لهم، ويدعون ما لم يرق لهم. فقرعهم الله أشد التقريع على ذلك فقال: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ، فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[1].

فلا يجوز في نظر الإسلام أخذ جانب العقيدة والإيمان من تعاليمه، وإغفال جانب العبادة أو الأخلاق، كالذين قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فإن عمل الصالحات مكمل للإيمان، وسياج له، وثمرة لازمة للإيمان الصادق، كما بيّن ذلك القرآن والسنّة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[2].

ولا يجوز في نظر الإسلام العناية بالعبادات والشعائر، وإهمال جانب الأخلاق والفضائل، لأن الفضائل الأخلاقية، من شعب الإيمان الحق، وثمرة للعبادة الصحيحة: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[3] : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[4] . وفي الصحيح:

(١) البقرة: ٨٥ ـ ٨٦
(٢) الأنفال: ٢-٤
(٣) رواه البخاري.
(٤) العنكبوت: ٤٥

«آية المنافق ثلاث، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

ولا يجوز في نظر الإسلام كذلك الاهتمام بالجانب الأخلاقي، وإغفال الجانب التعبدي، فإن الناس إنما خلقوا ليعرفوا اللّه ويعبدوه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . وإنما يُعبد اللّه تعالى بما شرع وفرض من شعائر وفرائض اعتبرها رسوله الأركان التي بُني عليها الإسلام. وأول خُلُقٍ يجب أن يتحلى به المسلم هو الوفاء للّه بعهده، وشكر نعمته، وأداء أمانته، وذلك بأداء حقه الذي افترضه على عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

ولا يجوز في نظر الإسلام الأخذ بكل ما ذكر من عقيدة وعبادة وأخلاق، مع إغفال جانب الشريعة التي نظم اللّه بها حياة الخلق، وأنزل بها الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. فلا يحل لمن يؤمن بعدل اللّه تعالى، وكمال علمه وحكمته وبره بخلقه، أن يدع شرع اللّه عمداً، ليحكم بشرائع البشر الممثلة لقصورهم وأهوائهم، ولهذا حذر اللّه رسوله -وبالتالي كل حاكم من بعده- أن يدع: ﴿ بَعْضَ مَا أَنْزَلَ اللَّه ﴾ تأثراً بأهواء الآخرين وفتنتهم، فإن من ترك حكم اللّه سقط لا محالة في حكم الجاهلية ولا ثالث لهما. قال تعالى: ﴿ وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3] .

* * *

(١) الذاريات: ٥٦
(٢) آل عمران: ٩٧
(٣) المائدة: ٤٩ـ ٥